تَوْجِيهُ النَّصِّ القُرآنيِّ في ضَوْءِ حُرُوفِ المَعَاني

((حُرُوفِ الجرِّ مثالاً))

د. أحمد حسين الجحيشي
جامعة المثنى - كلية التربية للعلوم الإنسانية

فحوى البحث

يمثل هذا البحث وقفة متأنية أمام أمثلة قرآنية اشتملت على حروف الجر، إذ أثرت دلالات تلك الحروف في توجيه هذه الأمثلة (النصوص) من جهات مختلفة، فلما كانت تلك الحروف تحتمل معاني كثيرة، فاختلاف المفسرين في تعيين دلالة من دلالاتها أدى بهم إلى اختلافهم في توجيه النص القرآني، فإذا كان النص القرآني مشتملا على أحكام شرعية أدى ذلك إلى اختلافهم في بيان تلك الأحكام. وسيجد القارئ وجوها كثيرة في النص الواحد، ولربما تداخلت هذه الوجوه – عند القارئ –وصعب التمييز بينها؛ لأنها تلتقي وتفترق فيما بينها في آن واحد.

مدخل

غير خاف أثر اللغة العربية -بنحوها وبلاغتها -في فهم القرآن الكريم، بل جعل العلماء المعرفة بلسان العرب من أهم الشروط المطلوبة لمن أراد أن يفسر القرآن، ويستنبط منه الأحكام، ومن بين مباحث علم العربية، مبحث معاني الحروف أو حروف المعاني، قال الزركشّي (ت٧٩٤هـ): «والبحث عن معاني الحروف، مما يحتاج إليه المفسر لاختلاف مدلولها»[١]، وذكر السيوطي (ت٩١١هـ) هذه الحروف تحت عنوان (الأدوات التي يحتاج إليها المفسر) قائلا: «وأعني أن معرفة ذلك من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقعها ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها»[٢] ومن أوسع تلك الحروف من حيث تعدد معانيها، حروف الجر، إذ أثرت دلالات تلك الحروف في توجيه النص القرآني من جهات مختلفة، وقد نبه على ذلك كثير من المفسرين، إذ اختلاف المفسرين في تحديد دلالات حروف الجر مفض إلى اختلافهم في توجيه النص القرآني، فإذا كان النص القرآني مشتملا على أحكام شرعية أدى ذلك إلى اختلافهم في بيان تلك الأحكام.

وسنقف على أمثلة قرآنية نتتبعها في كتب المفسرين نبين فيها قدر اختلافهم بناء على تعدد دلالات حروف الجر.

إلى:

ولها ثمانية معان[٣]: انتهاء الغاية الزمانية أو المكانية -وهو أصل معانيها- وبمعنى (مع)، والتبيين، وموافقة (اللام)، وموافقة (في)، والابتداء بمعنى موافقة (من)، وزائدة للتوكيد، وأضاف إليها الهروي[٤] معنى آخر وهو الإلصاق، أي موافقة الباء[٥]. وقد وردت في القرآن الكريم (٧٤٣) مرة[٦]

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٧٥.
(٢) الإتقان في علوم القرآن: ١/ ١٤٥.
(٣) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٣٨٥ -٣٩٠، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ١/ ١٠٤ -١٠٥.
(٤) هو علي بن محمد النحوي الهروي.
(٥) ينظر: الازهية في علم الحروف: ٢٨٤.
(٦) ينظر: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم: ١/ ٣٢٢ -٣٣٥.

ومن أمثلتها في النص القرآني الذي اختلف في توجيهه: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٢].

اختلف توجيه المفسرين لهذا النص القرآني تبعا لاختلافهم في تحديد دلالة حرف الجر (إلى) في هذا النص، وحاصل أقوالهم في معنى حرف الجر (إلى) ثلاثة وجوه، هي:

١. إن حرف الجر (إلى) مضمّن معنى حرف جر آخر.
٢. أن حرف الجر (إلى) مضمّن معنى الإضافة.
٣. إن حرف الجر (إلى) لم يضمّن حرف جر آخر وإنما دلّ على الغاية المجردة وهو أصل معانيها.

وقد أختلف توجيههم للنص القرآني في كل وجه من هذه الوجوه:

أولا: إن حرف الجر (إلى) مضمّن معنى حرف جر آخر أو مضمّن معنى الإضافة.

لم يتفق اللغويون و المفسرون القائلين بتضمين حرف الجر (إلى) معنى حرف جر آخر، على حرف جر واحد، وإنما ذهبوا إلى ثلاثة أحرف، هي: (مع) و(في) و(اللام).

١. تضمين حرف الجر (إلى) معنى (مع):

ذكر معظم المفسرين، أن حرف الجر في هذه الآية مضّمن معنى (مع)، بيد أنهم اختلفوا في قبولهم هذا الوجه، أو الردّ عليه، أو الاكتفاء بعرضه، وسنكتفي ببيان رأي الذين تبنوه ووجهوا النص القرآني في ضوئه، والذين رفضوه وردوه:

القول بأن (إلى) -في هذا النص- بمعنى (مع) مروي عن سفيان الثوري والسدي وابن جريج[٧] قال الفراء (ت٢٠٧هـ): «وقوله: ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ

(٧) ينظر: تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين: ابن أبي حاتم الرازي: ٦٥٩، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير: ٢/ ٤٥. ومجمع البيان لعلوم القرآن: الطبرسي: ٢/ ٣٦٩، والبحر المحيط: أبو حيان الأندلسي: ٢/ ٤٩٤.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ المفسِّرون يقولون: من أنصارى مع الله، وهو وجه حسن. وإنما يجوز أن تجعل (إلى) موضع (مع) إذا ضممت الشيء إلى الشيء مما لم يكن معه، كقول العرب: إن الذود إلى الذود إبل، أي إذا ضممت الذود إلى الذود صارت إبلا. فإذا كان الشيء مع الشيء لم تصلح مكان (مع) (إلى)، ألا ترى أنك تقول: قدم فلان ومعه مال كثير، ولا تقول في هذا الموضع: قدِم فلان وإليه مال كثير. وكذلك تقول: قدم فلان إلى أهله، ولا تقول: مع أهله، ومنه قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ [سورة النساء: ٢] معناه: ولا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم»[٨]، و اختار الطبري (ت٣١٠هـ) هذا التوجيه وحسّنه قائلا: «وإنما حسن أن يقال: (إلى الله) بمعنى: (مع الله)؛ لأن من شأن العرب إذا ضموا الشيء إلى غيره ثم أرادوا الخبر عنهما بضم أحدهما إلى الآخر إذا ضمّ إليه جعلوا مكان (مع)، (إلى) وأحيانا تخبر عنهما بـ (مع)»[٩] وذكره الطوسي (ت٤٦٠هـ) في أحد وجوه معنى (إلى)[١٠] واختاره أيضا السمرقندي: «يقول: من أعواني مع الله؟. قال القتبي[١١] (إلى) ههنا بمعنى (مع) مثل قوله ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي مع أموالكم»[١٢]، واختاره أيضا ابن أبي حاتم الرازي (ت٣٢٧هـ) إذ فسر حرف الجر (إلى) هنا بالمعية فذكر بسنده عن سفيان الثوري أنه قال: في قوله: (من أنصاري إلى الله) قال: من أنصاري مع الله»[١٣].

والملاحظ في هذا التوجيه أن المفسرين واللغويين لم يقولوا أن (إلى) بمعنى (مع) وكفى -سوى ما ورد في

(٨) معاني القرآن: ١/ ٢١٨، وينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٣٨٦، وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: الآلوسي: ٣/ ١٧٥.

(٩) جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري: ٦/ ٤٤٣.

(١٠) ينظر: التبيان في تفسير القرآن: الطوسي: ٢/ ٤٧٣.

(١١) هو أبو محمد عبد الله بن قتيبة القتبي الدينوري (ت٢٧٠هـ).

(١٢) بحر العلوم: ١/ ٢٧٠.

(١٣) تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين: ٣/ ٦٥٩.

المأثور عن سفيان والسدي وجريج- وإنما أوردوا مثالا قرآنيا آخر أرادوا في ضوئه توضيح ما ذهبوا إليه وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ إذ اشترطوا في (إلى) أن تحمل معنى الضم أو الإضافة، وهو معنى (مع) فإن لم تحتمل هذا المعنى لا يصح تقديرها بـ (مع)، قال الزجاج (ت٣١١هـ): «و(إلى) ههنا إنما قاربت (مع) معنى بأن صار اللفظ لو عبر عنه بـ (مع) أفاد مثل هذا المعنى، لا أن (إلى) في معنى (مع) لو قلت: ذهب زيد إلى عمرو لم يجز: ذهب زيد مع عمرو؛ لأن (إلى) غاية، و(مع) تضم الشيء إلى الشيء، فالمعنى: يضيف نصرته إياي إلى نصرة الله، وقولهم: إن (إلى) في معنى (مع) ليس بشيء، والحروف قد تقاربت في الفائدة فيظن الضعيف العلم باللغة أن معناهما واحد»[١٤].

والملاحظ أن بعض المفسرين الذين قالوا: إن (إلى) بمعنى (مع) من دون تفصيل أو توضيح يتوهم في قولهم أنهم يقولون أن معناهما واحد، ولذا سارع المفسرون إلى بيان الفارق الدلالي بينهما فقالوا: إنهما يشتركان بمعنى الضم أو الإضافة ومع هذا التوضيح والتبيين استعمل هؤلاء لفظ (مع) كما ذكرنا في بعض أمثلتهم سابقا، في حين لم يستعمله آخرون ومنهم الزمخشري (ت٥٣٨هـ) حين قال: «و (إلى الله) من صلة أنصاري مضمنا معنى الإضافة، كأنه قيل: من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله ينصرونني، كما ينصرني»[١٥]، وقد نحا البيضاوي[١٦] (ت٦٨٥هـ) منحى الزمخشري فقال: «ويجوز أن يتعلق الجار بـ (أنصاري) مضمنا معنى الإضافة، أي من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله تعالى

(١٤) معاني القرآن وإعرابه: ١/ ٤١٦، وينظر: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): الفخر الرازي: ٨/ ٦٩، وينظر: مجمع البيان لعلوم القرآن: ٢/ ٣٦٩، وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٣/ ١٧٥.

(١٥) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري: ١٧٣.

(١٦) هو ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي الشيرازي الشافعي.

في نصري»[17]، وهو ما قاله المراغي في تفسيره أيضا[18].

إن تضمين الإضافة في حرف الجر (إلى) في هذه الآية كان مقبولا عند من ينكر أن (إلى) بمعنى (مع) بيد أنه اشترط أن يكون معناه الغاية بلا تقدير (مع) ومنهم ابن عطية (ت٥٤٦هـ) إذ ردّ هذا التوجيه بقوله: «وقوله: (إلى الله) يحتمل معنيين... والمعنى الثاني: أن يكون التقدير من يضيف نصرته إلى نصرة الله لي؟. فيكون بمنزلة ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ فإذا تأملتها وجدت فيها معنى الغاية لأنها تضمنت إضافة شيء إلى شيء، وقد عبر عنها ابن جريج والسدي بأنها بمعنى (مع)، ونعم إن (مع) تسد في هذه المعاني مسد (إلى) لكن ليس يباح من هذا أن يقال إن (إلى) بمعنى (مع) وهذه عجمة، بل (إلى) في هذه الآية غاية مجردة»[19].

وقال الحسن بن قاسم المرادي (ت٧٤٩هـ) «والمعنى في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من يضيف نصرته إلى نصرة الله، و(إلى) في هذا أبلغ من (مع)؛ لأنك لو قلت: من ينصرني مع فلان لم يدل على أن فلانا وحده ينصرك، ولابدّ، بخلاف (إلى) فإن نصرة ما دخلت عليه محققة واقعة، مجزوم بها، إذ المعنى على التضمين: من يضيف نصرته إلى نصرة فلان»[20].

وقد ردّ السيد الطباطبائي هذا التوجيه سواء أكانت (إلى) بمعنى (مع) أم كانت مضمنة الإضافة، بقوله: «وأما ما احتمله بعض المفسرين من كون (إلى) بمعنى (مع) فلا دليل عليه، ولا يساعد أدب القرآن أن يجعله تعالى في عداد غيره فيعد غير الله ناصرا كما يعده ناصرا، ولا يساعد عليه أدب عيسى عليه السلام اللائح مما يحكيه القرآن من قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، أيضا لا يساعد عليه إذ كان من اللازم على ذلك أن يقولوا: (نحن أنصارك مع الله)

(١٧) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١/ ٣٤٩.
(١٨) ينظر: تفسير المراغي: ٣/ ١٦٣.
(١٩) المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز: ١/ ٤٤٢.
(٢٠) الجنى الداني في حروف المعاني: ٣٨٦.

فليتأمل»[٢١].

تضمين حرف الجر (إلى) معنى (في):

القائلين بهذا الوجه عدد قليل من المفسرين بيد أن الرازي (ت٦٠٤هـ)- بعد أن ذكر وجوه معنى (إلى) -ذكر أنه قول الحسن البصري قائلا: «تقدير الآية، من أنصاري في سبيل الله، و (إلى) بمعنى (في) جائز وهذا قول الحسن»[٢٢] بيد أني وجدت في بعض التفاسير أن ما نسب إلى الحسن غير الذي ذكره الرازي ولاسيما في تفسيري الطوسي والطبرسي (ت٥٤٨هـ) وهما متقدمان عليه «قال الحسن: من أنصاري في السبيل إلى الله؟. لأنه دعاهم إلى سبيل الله»[٢٣] وعلى هذا تكون (إلى) دالة على الغاية دلالة ظاهرة على بابها، وليس بمعنى (في) كما ذكر الرازي، فهناك فرق كبير في التقديرين بين أن تقول: من أنصاري في سبيل الله، ومن أنصاري في السبيل إلى الله، على أن التقدير الثاني ذكر في أكثر من تفسير وإن لم ينسب للحسن، بخلاف التقدير الأول الذي لم يذكره سوى الرازي منسوبا للحسن، أما البيضاوي فقد اكتفى بالإشارة إلى تضمين (إلى) معنى (في) قائلا: «وقيل: (إلى) ههنا بمعنى (في)»[٢٤] وأشار الآلوسي (ت١٢٧٠هـ) إلى ذلك أيضا[٢٥].

تضمين حرف الجر (إلى) معنى (اللام):

القائلين بهذا الوجه عدد قليل من المفسرين وقد جعله الطوسي في الوجه الثالث منسوبا للجبائي ومعللا هذا الوجه بقوله: «قال الجبائي: من أنصاري لله، كما قال: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ [سورة يونس: ٣٥] ووجه ذلك أن العرض يصلح فيه (اللام) عن طريق العلة وإلى طريق النهاية، فإن قيل أن عيسى إنما

(٢١) الميزان في تفسير القرآن: ٣/ ٢٣٥.
(٢٢) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): ٨/ ٦٩.
(٢٣) التبيان في تفسير القرآن: الطوسي: ٢/ ٤٧٣، وينظر: مجمع البيان لعلوم القرآن: ٢/ ٣٦٩، وينظر: البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي: ٢/ ٤٩٤.
(٢٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٣/ ٣٤٩.
(٢٥) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٣/ ١٧٥.

بعث بالوعظ دون الحرب لم استنصر عليهم؟. قلنا للحماية من الكافرين الذين أرادوا قتله عند إظهار الدعوة- في قول الحسن ومجاهد -وقال آخرون: يجوز أن يكون طلب النصرة للتمكين من إقامة الحجة وإنما قاله ليتميز الموافق من المخالف»[٢٦] وقد جعله الرازي في الوجه الخامس في معنى (إلى) من دون أن يرجحه أو يعلله، إذ اكتفى بعرضه قائلا: «أن يكون (إلى) بمعنى (اللام) كأنه قال: من أنصاري لله؟. نظير قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾»[٢٧] وذكر أبو حيان هذا الوجه مع نسبته إلى أبي علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) قائلا: «قال أبو علي الفارسي معنى: إلى الله: لله، كقوله: (يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ، أي للحق)»[٢٨] وأشار الآلوسي -بعد أن ذكر ما قاله المفسرون في معنى (إلى) في هذه الآية- إلى هذا المعنى قائلا: «فالسالم عن هذا الحمل من التفاسير مع اشتماله على قلّة الإضمار أولى، ومن هنا اختار بعضهم كون (إلى) بمعنى (اللام)... كأنه طلب منهم أن ينصروه لله تعالى لا لغرض آخر مدمجا أن نصرة الله تعالى في نصرة رسوله، وجوابه المحكي عنهم بقوله سبحانه: ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾، شديد الطباق له، كأنهم قالوا: نحن ناصروك؛ لأنه نصر الله تعالى للغرض الذي رمز إليه، ولو قالوا مكانه: نحن أنصارك لما وقع هذا الموقع. وأنت تعلم أنّ جعل (إلى) بمعنى (اللام) أو (في) التعليليتين يحصل طلبة المسيح التي أشير إليها على وجه لعله أقل تكلفا مما ذكر»[٢٩] فالآسوسي وجد في الوجوه الكثيرة التي ذكرها المفسرون في بيان معنى (إلى) أنها لا تخلو من التقدير والإضمار وهو مما يشوبه التكلف، فالمعنى عنده مع قلّة

(٢٦) التبيان في تفسير القرآن: الطوسي: ٢/ ٤٧٣.

(٢٧) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): ٨/ ٦٩.

(٢٨) البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي: ٢/ ٤٩٤.

(٢٩) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٣/ ١٧٥.

الإضمار أولى؛ لذا اختار أن يكون معنى (إلى) قريب من معنى (اللام) أو (في) مشيرا إلى أن هذا الوجه وإن اشتمل على شيء من التكلف فهو أقل تكلفا مما ذكره الآخرون وأكثر انسجامنا وتلاحما ومطابقة مع جواب هذا السؤال المحكي عنهم (نَحْنُ أَنْصارُ اللهِّ).

ثانيا: إنّ حرف الجر (إلى) لم يضمّن حرف جر آخر وإنما دلّ على الغاية المجردة وهو أصل معانيها.

ذكر هذا الوجه عدد كبير من المفسرين بيد أنهم وإن اتفقوا في دلالة حرف الجر (إلى) على الغاية فقد اختلفوا في توجيه النص القرآني ولاسيما في تقدير المضمر فيه على أقوال:

١. ذهب فريق منهم إلى أن حرف الجر (إلى) متعلق بمحذوف وقع حالا، وعلى هذا يكون تقدير الآية: من أنصاري متوجها إلى الله، أو ملتجئا إليه، أو ذاهبا إليه؟. وممن ذكر ذلك من المفسرين[٣٠] الزمخشري، والرازي، والبيضاوي، والشوكاني[٣١] (ت ١٢٥٠هـ)، والآلوسي.

٢. ذهب فريق آخر إلى تقدير محذوف يبقي حرف الجر (إلى) دالا على الغاية، وعلى الرغم من اختلافهم في تقدير هذا المحذوف إلاّ أن المعنى العام للنص القرآني يكاد يكون متقاربا ومن ذلك: ما ذكره ابن عطية «وقوله ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ يحتمل معنيين، أحدهما: من ينصرني في السبيل إلى الله؟. فتكون إلى دالة على الغاية دلالة ظاهرة على بابها»[٣٢] وقد ذكرنا فيما سبق أن هذا التوجيه ينسب إلى الحسن[٣٣]، أو ما ذكره الطبرسي بقوله: «من أعواني على

(٣٠) ينظر: الكشاف: ١٧٣، والتفسير الكبير (مفاتيح الغيب): ٨/ ٦٩، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١/ ٣٤٩، وفتح القدير: ١/ ٥١٩، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٣/ ١٧٥.

(٣١) وهو محمد بن علي بن محمد الشوكاني، مفسر فقيه مجتهد، من كبار علماء اليمن.

(٣٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٤٤٢.

(٣٣) ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٢/ ٤٧٣، وينظر: مجمع البيان لعلوم القرآن: ٢/ ٣٦٩.

إقامة الدين المؤدي إلى الله؟»[٣٤] أو ما اختاره ابن كثير بقوله: «فالظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟.»[٣٥] وبه قال محمد عبده: «(قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ) أي توجه عيسى عليه السلام إلى البحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه في دعوته تاركين لأجلها كل ما يشغل عنها منخلعين عمّا كانوا فيه متحيزين ومنزوين إلى الله منصرفين إلى تأييد رسوله ونصره على خاذليه والكافرين بما جاء به (قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ) أي أنصار دينه»[٣٦].

والملاحظ أن هذه التقديرات وإن اختلفت في الكلمات فإن معناها واحد فلا فرق بين السبيل، والدين، والدعوة.

ومن أمثلتها التي اشتملت على حكم شرعي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾[سورة المائدة: ٦].

اختلف المفسرون في توجيه هذا النص القرآني تبعا لاختلافهم في بيان معاني حرف الجر (إلى) وذلك على قولين:

١. حرف الجر (إلى) بمعنى (مع).

٢. حرف الجر (إلى) لانتهاء الغاية.

ومن يطّلع على آراء المفسرين في توجيه هذا النص القرآني يجد فيها أثر الفقه واضحا، لا لأن هذا النص مشتمل على حكم شرعي فحسب، بل لأن هذا الحكم مُختَلف فيه بين المذاهب الإسلامية، إذ غسل اليد في الوضوء يشتمل على أمرين هما: كيفية الغسل، وحدّ الغسل، ولذا حاول معظم المفسرين الانتصار لمذهبهم الفقهي عن طريق توجيه النص القرآني.

١. (إلى) بمعنى (مع):

نقل الطبرسي عن الواحدي أن «كثيرا من النحويين يجعلون (إلى) هنا بمعنى (مع)، ويوجبون غسل المرافق، وهو مذهب أكثر الفقهاء»[٣٧] والظاهر

(٣٤) مجمع البيان لعلوم القرآن: ٢/ ٣٧٠.
(٣٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٥.
(٣٦) تفسير المنار: ٣/ ٣٣١ - ٣١٤.
(٣٧) مجمع البيان لعلوم القرآن: ٣/ ٣٣٠.

أن تقدير النحويين (إلى) بمعنى (مع) هو لغرض إدخال المرافق في الوضوء، نظرا لكثرة الروايات عن النبيﷺ أنه كان يغسلها إذا توضأ، إذ لم يجعلوها لانتهاء الغاية؛ لأنهم يرون أن انتهاء الغاية ظاهر في انتفاء دخول ما بعدها وهو ما ذكره الآلوسي بقوله: «ومنهم من حكم بظهور انتفاء الدخول، وعليه النحويون»[٣٨]، وحكي عن الشافعي أنه قال: لا أعلم خلافا في أن المرافق يجب غسلها، ولذا قيل (إلى) بمعنى (مع) كما في قوله تعالى ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [سورة هود: ٥٢] و (مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ)... وأمثال ذلك كثيرة[٣٩].

٢. حرف الجر (إلى) لانتهاء الغاية.

رفض عدد من اللغويين والمفسرين أن تكون (إلى) بمعنى (مع) وذهبوا إلى أنها تفيد الغاية لا غير، ومنهم الزجاج بقوله: «فذكر الحدّ في الغسل إلى المرافق، واليد من أطراف الأصابع إلى الكف ففرض علينا أن نغسل بعض اليد من أطراف الأصابع إلى المرافق، فالمفرق متقطع مما لا يغسل ودخل فيما يغسل، وقد قال بعض أهل اللغة معناه مع المرافق، واليد المرفق داخل فيها، فلو كان اغسلوا أيديكم مع المرافق، لم تكن في المرافق فائدة، وكانت اليد كلها يجب أن تغسل، ولكنه لما قيل: إلى المرافق اقتطعت في الغسل من حدّ المرفق... فالمرفق حدّ ما ينتهي إليه في الغسل منها، وليس يحتاج إلى تأويل (مع)»[٤٠] وقد وافق الزجاج في تعليله هذا عدد من المفسرين كالطبرسي، والبيضاوي والسيد الطباطبائي[٤١].

وتوجيه النص القرآني على أن (إلى) بمعنى (مع) أو أنها لانتهاء الغاية يترتب عليه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: سبب القول: إن (إلى) بمعنى (مع) هو لغرض إدخال المرافق في الوضوء لأن النبيﷺ كان يدخلها فيه، فهؤلاء يرون أن (إلى) لو

(٣٨) روح المعاني: ٦/ ٧١.
(٣٩) ينظر: مجمع القرآن لعلوم القرآن: ٣: ٣٣١، وروح المعاني: ٦/ ٧٠.
(٤٠) معاني القرآن وإعرابه: ٢/ ١٥٣.
(٤١) ينظر: مجمع البيان: ٣/ ٣٣٠، وأنوار التنزيل: ٢/ ١١٦، والميزان في تفسير القرآن: ٥/ ٢٢٥.

كانت لانتهاء الغاية لما صح أن تدخل المرافق في الوضوء؛ لأن الغاية لا يصح أن يدخل ما بعدها في حكم ما قبلها، لذا حاولوا أن يوفّقوا بين دلالة النص القرآني وبين ما ورد عن النبيﷺ وهو إدخال المرافق في الوضوء من غير أن ينقضوا هذه القاعدة فأوّلوا (إلى) بمعنى (مع).

وقد ردّ السيد الطباطبائي ذلك التوجيه بقوله: «وربما ذكر بعضهم أن (إلى) بمعنى (مع) كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ وقد استند في ذلك إلى ما ورد في الروايات أن النبيﷺ كان يغسلهما إذا توضأ، وهو من عجيب الجرأة في تفسير كلام الله، فإن ما ورد في السنة في ذلك إما فعل والفعل مبهم ذو وجوه فكيف يسوغ أن يحصل بها معنى لفظ من الألفاظ حتى يعد ذلك أحد معاني اللفظ؟. وإما قول وارد في بيان الحكم دون تفسير الآية، ومن الممكن أن يكون وجوب الغسل للمقدمة العلمية أو مما زاده النبيﷺ وكان له ذلك كما فعلهﷺ في الصلوات الخمس على ما وردت به الروايات الصحيحة»[٤٢].

المسألة الثانية: القائلون إن (إلى) لانتهاء الغاية اختلفوا في دخول ما بعدها-وهو المرافق -في حكم ما قبلها، يقول الزركشي: «واختلف في دخول ما بعدها في حكم ما قبلها على مذاهب:

أحدها: لا تدخل إلا مجازا؛ لأنها تدل على غاية الشيء ونهايته التي هي حدّه، وما بعد الحد لا يدخل في المحدود، ولهذا لم يدخل شيء من الليل في الصوم في قوله تعالى: ﴿أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [سورة البقرة: ١٨٧].

الثاني: عكسه، أي أنه يدخل ولا يخرج إلاّ مجازا بدليل آية الوضوء.

والثالث: أنها مشتركة فيهما لوجود الدخول وعدمه.

والرابع: إن كان ما بعدها من جنس ما قبلها أو جزءا كالمرافق دخل وإلاّ فلا"[٤٣].

فالذين ذهبوا إلى وجوب غسل

(٤٢) الميزان في تفسير القرآن: ٥/ ٢٢٥.
(٤٣) البرهان في علوم القرآن: ٤/ ٢٣٢.

المرفقين في الوضوء[٤٤] منهم من ذهب إلى أن الأصل في الغاية في الحدّ أنه داخل في المحدود[٤٥].

ومنهم من ذهب إلى أن ما بعدها إن كان من جنس ما قبلها يدخل احتياطا وإلاّ فلا، يقول ابن عطية: «وتحرير العبارة في هذا المعنى أن يقال: إن كان ما بعد (إلى) ليس مما قبلها فالحدّ أول المذكور بعدها، وإذا كان ما بعدها من جملة ما قبلها فالاحتياط يعطي أن الحدّ المذكور بعدها؛ ولذلك يترجح دخول المرفقين في الغسل»[٤٦].

(٤٤) ينظر: أحكام القرآن للشافعي: ١/ ٤٣، المحرر الوجيز: ٢/ ١٦٢، الكشاف: ٢٨٠، أحكام القرآن للجصاص: ١/ ٣٢٠، أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ٥٩، أنوار التنزيل: ٣/ ٢٢٠، الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٨٦، تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٥، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١/ ٣١٠، معالم التنزيل: ٢/ ١٧، لباب التأويل: ٢/ ١٨، فتح القدير: ٢/ ١٧، زاد المسير: ٢/ ٣٠٠، مدارك التنزيل: ١/ ٣٩٥، مجمع البيان: ٣/ ٣٣٠، روح المعاني: ٦: ٧٠، التحرير والتنوير: ٦/ ١٣٠.

(٤٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٦/ ١٣٠.

(٤٦) المحرر الوجيز: ٢/ ١٦٢.

ومنهم من ذهب إلى أن ما بعدها محتمل للدخول والخروج إلاّ أن الاحتياط هو الذي أخذ بالعلماء إلى أن يحكموا بدخولها في الغسل[٤٧].

وأما الذين ذهبوا إلى عدم وجوب غسل المرفقين[٤٨] فمنهم من قال بأن ما بعد (إلى) لا يدخل في حكم ما قبلها، ومنهم من قال بأن ما بعدها محتمل الدخول فيما قبلها، ويحتمل عدم الدخول ولم يأت دليل على الدخول، فنأخذ بالأصل وهو عدم الدخول[٤٩].

وذهب فريق ثالث إلى أن النص القرآني لم يحدد وجوب غسل المرفقين من عدمه، وإنما الذي يحدد ذلك أمر خارج النص وهو السنة النبوية ويمكننا أن نتلمس ذلك في ما ذهب إليه الزمخشري بقوله: «(إلى) تفيد معنى الغاية مطلقا فأما دخولها في الحكم وخروجها فأمر يدور مع الدليل... وقوله: (إلى المرافق)

(٤٧) ينظر: الكشاف: ٢٢٨٠، مدارك التنزيل: ١/ ٣٩٥.

(٤٨) ينظر: جامع البيان: ٦/ ١٣٤، والبحر المحيط: ٣/ ٤٥٠.

(٤٩) ينظر: البحر المحيط: ٣/ ٤٥٠.

و(إلى الكعبين) لا دليل فيه على أحد الأمرين»[٥٠]، فأصبحت الآية مجملة في ذلك، والسنة هي التي تبين الحكم وقد ورد عن النبي ﷺ أنه كان يدخلها، وقد وافقه الجصاص في ذلك[٥١]، وقريب من ذلك ما ذكره البيضاوي بقوله: «وأما دخولها في الحكم أو خروجها منه فلا دلالة لها عليه وإنما يعلم من خارج ولم يكن في الآية»[٥٢] وهو ما ذهب إليه السيد الطباطبائي أيضا بقوله: «وأما دخول مدخول (إلى) في حكم ما قبله أو عدم دخوله فأمر خارج عن معنى الحرف، فشمول حكم الغسل للمرافق لا يستند إلى لفظة (إلى) بل إلى ما بينته السنة من الحكم»[٥٣].

المسألة الثالثة: لما كانت (إلى) لانتهاء الغاية فإن ذلك يقتضي أن يكون الغسل يبدأ من أطراف الأصابع وينتهي إلى المرفقين، وقد نقلنا ذلك عن الزجاج فيما سبق.

بيد أن السيد الطباطبائي وإن وافق الزجاج في أن (إلى) لا تكون بمعنى (مع) للعلة التي ذكرها، إلا أنه أضاف أن غسل اليد بعد التحديد مطلق غير مقيد بالغاية، قائلا: «وقد تبين أن قوله: (إلى المرافق) قيد لقوله: (أيديكم) فيكون الغسل المتعلق بها مطلقا غير مقيد بالغاية يمكن أن يبدأ فيه من المرفق إلى أطراف الأصابع وهو الذي يأتي به الانسان طبعا إذا غسل يده في غير حال الوضوء من سائر الأحوال أو يبدأ من أطراف الأصابع ويختم بالمرفق، لكن الأخبار الواردة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام تفتي بالنحو الأول دون الثاني، وبذلك يندفع ما ربما يقال: إن تقييد الجملة بقوله: (إلى المرافق) يدل على وجوب الشروع في الغسل من أطراف الأصابع والانتهاء إلى المرافق، ووجه الاندفاع أن الإشكال مبني على كون قوله: (إلى المرافق) قيدا لقوله: (فاغسلوا) وقد تقدم أنه قيد للأيدي، ولا مناص منه لكونه مشتركا محتاجا إلى

(٥٠) الكشاف: ٢٨٠.
(٥١) ينظر: أحكام القرآن للجصاص: ٢/ ٢٤١
(٥٢) أنوار التنزيل: ٢/ ١١٦.
(٥٣) الميزان في تفسير القرآن.

القرينة المعينة، ولا معنى لكونه قيدا لهما جميعا. على أن الأمة أجمعت على صحة وضوء من بدأ في الغسل بالمرافق وانتهى إلى أطراف الأصابع كما في المجمع[٥٤]، وليس إلاّ لأن الآية تحتمله، وليس إلاّ لأن قوله: (إلى المرافق) قيد للأيدي دون الغسل»[٥٥].

الباء:

وهي ضربان زائدة وغير زائدة، فأما غير الزائدة فقد ذكر لها النحويون ثلاثة عشر معنى[٥٦]: (الإلصاق -وهو أصل معانيها -التعدية، الاستعانة، السببية أو التعليل، المصاحبة، الظرفية، البدل، المقابلة، المجاوزة، الاستعلاء، التبعيض، القسم، بمعنى (إلى)) وقد وردت في القرآن الكريم (٢٥١٧) مرة[٥٧].

ومن أمثلتها في النص القرآني الذي اختلف في توجيهه:

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٣].

اختلف توجيه المفسرين لهذا النص القرآني تبعا لاختلافهم في تحديد دلالة حرف الجر (الباء) في قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾، وحاصل أقوالهم في معنى حرف الجر (الباء) أربعة وجوه، هي:

١. الباء تفيد السببية.
٢. الباء تفيد الجمع فيحتمل أن تكون بمعنى (مع) أو (إلى) أو (على).
٣. الباء تفيد المقابلة.
٤. الباء تفيد البدل.

وقد أختلف توجيههم للنص القرآني في كل وجه من هذه الوجوه، فضلا عن ذلك إن اختلافهم في تعيين دلالة حرف

(٥٤) يريد بذلك كما ورد في تفسير مجمع البيان في علوم القرآن ينظر، مجمع البيان: ٣/ ٣٣١.
(٥٥) الميزان في تفسير القرآن: ٥/ ٢٢٥-٢٢٦.
(٥٦) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٣٦-٤٥، ومغني اللبيب: ١/ ١٣٧-١٤٤.
(٥٧) ينظر: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم: ٢/ ٤٥٤-٤٩٦.

الجر (الباء) جعلهم يختلفون في أشياء أخرى منها: أن (الغم) المذكور هل هو ثواب ونعمة أم عقاب ونقمة، وعلى ذلك وجب تعيين دلالة الفعل (أثابكم) وتعيين فاعله هل هو الله عز وجل أم النبي محمدﷺ، وهل هذا الغم واحد أم هو غم مضاف إلى غم، أي غمين متتابعين، وعلى ذلك وجب تعيين دلالة حرف الجر (الباء)، وتعيين هذين الغمّين الأول والثاني.

١. **الباء تفيد السببية:**

ذكر عدد كبير من المفسرين هذا الوجه بيد أنهم اختلفوا في تعيين السبب الذي أدى بهم إلى هذا الغم:

أ. إن سبب ذلك هو مخالفتهم النبيﷺ وعصيانهم له مما أدى إلى غمه فجزاهم الله بذلك غما[٥٨]. وعلى هذا الوجه يكون الغم عقوبة لهم ونقمة عليهم من الله عزّ وجل، لذا تأولوا الفعل (أثابكم) بما يناسب ذلك فقالوا: وسمي الغم ثوابا على معنى أنه القائم في هذه النازلة مقام الثواب وهذا قوله: تَحِيَة بَيْنَهُم ضَرْبٌ وَجيعُ.

وكقول الآخر:

أخاف زيادا أن يكون عطاؤه

أداهم سودا أو محدرجة سمرا

فجعل القيود والسياط عطاء أي أن العطاء عقوبة[٥٩] وقالوا أيضا: «إنما قيل في الغم ثواب؛ لأن أصله ما يرجع من الجزاء على الفعل طاعة كان أو معصية ثم كثر في جزاء الطاعة كما قال الشاعر:

واراني طربا في إثرهم

طرب الواله أو كالمختبل

فعلى هذا يكون الغم عقوبة لهم على فعلهم، وهزيمتهم»[٦٠].

(٥٨) ينظر: معاني القرآن للزجاج: ١/ ٤٧٩، والتبيان في تفسير القرآن: ٣/ ٢٢، ومجمع البيان: ٢/ ٤١٩، وتفسير الكشاف: ٢٠٠، والمحرر الوجيز: ٥٢٦، والبحر المحيط: ٣/ ٩١، وتفسير البيضاوي: ٢/ ٤٣، وزبدة التفاسير: ١/ ٥٧٧، وروح المعاني: ٤/ ٩٢، وآلاء الرحمن في تفسير القرآن: محمد جواد البلاغي: ١/ ٣٥٨.

(٥٩) وينظر: جامع البيان: ٤/ ١٧٩، التبيان في تفسير القرآن: ٣/ ٢١، ومجمع البيان: ٢/ ٤٢٢، المحرر الوجيز: ١/ ٥٢٦، والبحر المحيط: ٣/ ٩٠.

(٦٠) التبيان في تفسير القرآن: ٣/ ٢١، وينظر:

ب. إن الضمير في (أثابكم) يعود للرسول ﷺ:

وعلى ذلك فتوجيه النص يختلف عن سابقه وإن كانت (الباء) للسببية، قال الزمخشري: «ويجوز أن يكون الضمير في (فأثابكم) للرسول، أي: فآساكم في الاغتمام، وكما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما، غمه ما نزل بكم، فأثابكم غما اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتممتموه لأجله، ولم يثربكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره، وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم، كيلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله، ولا على ما أصابكم من غلبة العدوّ»[٦١] وعلى ذلك يكون الغم ثوابا فالفعل (أثابكم) معناه حقيقي لا مجازي.

وردّ أبو حيان هذا الوجه بقوله: «وهو خلاف الظاهر؛ لأن المسند إليه في الأفعال السابقة هو الله تعالى، وذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ وقوله ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ﴾ فيكون قوله: (فأثابكم) مسنداً إلى الله تعالى. وذكر الرسول إنما جاء في جملة حالية نعى عليهم فرارهم مع كون من اهتدوا على يده يدعوهم، فلم يجيء مقصوداً لأن يحدث عنه، إنما الجملة التي ذكر فيها في تقدير المفرد إذ هي حال»[٦٢].

٢. إن الباء تفيد الجمع والإضافة فيحتمل أن تكون بمعنى (مع) أو (على):

ذكر هذا الوجه معظم المفسرين بيد أن بعضهم أشاروا إلى اجتماع الغمّين من دون أن يقدروا حرف الجر (الباء) بحرف جر آخر أو يعينوا دلالته، من ذلك قول الفراء: «(غما بغم) ما أصابهم يوم أحد من الهزيمة والقتل ثم أشرف عليهم خالد بن الوليد بخيله فخافوه، وغمهم ذلك»[٦٣] وقال الزمخشري: «غما مضاعفا، غماً بعد غم، وغماً متصلاً بغم من الاغتمام

ومجمع البيان: ٢/ ٤٢٢، وآلاء الرحمن في تفسير القرآن: ١/ ٣٥٨.

(٦١) الكشاف: ٢٠٠، والبحر المحيط: ٣/ ٩١، وتفسير البيضاوي: ٢/ ١٠٤.

(٦٢) البحر المحيط: ٣/ ٩١.

(٦٣) معاني القرآن: الفراء: ١/ ٢٤٠، وينظر: معاني القرآن: الزجاج: ١/ ٤٧٩.

بما أرجف به من قتل رسول الله ﷺ، والجرح، والقتل، وظفر المشركين، وفوت الغنيمة، والنصر»[٦٤] في حين ضمّن بعضهم حرف الجر (الباء) حرف جر آخر يدل على اجتماع الغمّين قال الطبري: «وأما قوله (غما بغم) فمعناه: غما على غم كما قيل: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [سورة: طه: ٧١] بمعنى ولأصلبنكم على جذوع النخل... فكان كذلك معنى (فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ)؛ لأن معناه: فجزاكم الله غما بعقب غم تقدمه، وهو نظير قول القائل: نزلت ببني فلان، ونزلت على بني فلان، وضربته بالسيف وعلى السيف»[٦٥].

وذهب أبو حيان إلى أن هذا التوجيه هو تفسير للمعنى لا تفسير إعراب؛ لأن (الباء) لا تكون بمعنى (بعد) أو (إلى) وإنما إذا أريد الجمع بين الغمّين ينبغي أن تكون بمعنى المصاحبة إذ هو أحد معانيها، فالمعنى: «غما مصاحبا لغم، فيكون الغمان إذ ذاك لهم»[٦٦] وقد عبر بعض المفسرين عن هذه المصاحبة بقولهم: إن (الباء) بمعنى (مع)[٦٧]. ومن ثم اختلف المفسرون في بيان هذين الغمّين أو في ترتيبهما[٦٨].

٣. الباء تفيد البدل:

أشار عدد من المفسرين إلى هذا الوجه بيد أن توجيههم للنص القرآني بناء على معنى البدلية مختلف ذكر ابن عطية: (فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ) الذي أوقع على أيديكم بالكفار يوم بدر... فالباء باء معادلة كما قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال»، ومعنى المعادلة

(٦٤) الكشاف: ٢٠٠، والبحر المحيط: ٣/ ٩١، وينظر: تفسير البيضاوي: ٢/ ٤٣، وزبدة التفاسير: ١/ ٥٧٧، والتفسير الأصفى: ١/ ١٧٨.

(٦٥) تفسير الطبري: ٧/ ٣٠٤-٣٠٥، والتبيان في تفسير القرآن: ٣/ ٢١، ومجمع البيان: ٢/ ٤١٩.

(٦٦) البحر المحيط: ٣/ ٩٠-٩١.

(٦٧) ينظر: مجمع البيان: ٢/ ٤١٩، والمحرر الوجيز: ١/ ٥٢٦، وآلاء الرحمن في تفسير القرآن: ١/ ٣٥٨.

(٦٨) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٤/ ١٨٠-١٨٣، تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين: ابن أبي حاتم الرازي: ٧٩١. وروح المعاني: ٤/ ٩٢.

ليس في معاني (الباء) لذا ذهب أبو حيان إلى أن هذا التوجيه يجعل (الباء) سببية بقوله: « وإن كانت الباء للسبب وهي التي عبر بعضهم عنها أنها بمعنى الجزاء، فيكون الغم الأوّل للصحابة، والثاني قال الحسن وغيره: متعلقه المشركون يوم بدر، والمعنى: أثابكم غماً بالغم الذي أوقع على أيديكم بالكفار يوم بدر»[٦٩] ويبدو لي أن ابن عطية بتوجيهه هذا لم يرد معنى السببية؛ إذ ذكر معنى السببية من دون الإشارة لهذا التوجيه وإنما أراد معنى غيره أطلق عليه (المعادلة) وهو قريب من معنى المقابلة أو البدل وكلا المعنيين في معاني (الباء)، وأرى أن هذا التوجيه بعيد عن دلالة النص، إذ كيف يثيب الله عز وجل المسلمين غما عوض غمهم المشركين يوم بدر فهل هذا الغم ثواب أم عقاب إذ لا يصدق عليه أحد المعنيين.

ونقل الشيخ الطوسي توجيها للنص بناء على أن (الباء) بمعنى البدل نسبه للحسين بن علي المغربي قال: «معنى (غما بغم) يعني غم المشركين بما ظهر من قوة المسلمين على طلبهم على حمراء الأسد، فجعل هذا الغم عوض غم المسلمين بما نيل منهم»[٧٠]. وعلى هذا يكون الغم الأول للمشركين بدل غمهم المسلمين يوم أحد من عدم إدراكهم النصر وفوت الغنيمة.

وذهب السيد الطباطبائي إلى أن (الباء) بدلية بيد أنه وجه النص توجيها يختلف عن سابقيه قائلا: «قوله تعالى فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم الخ أي جازاكم غما بغم ليصرفكم عن الحزن على كذا وهذا الغم الذي أثيبوا به كيفما كان هو نعمة منه تعالى بدليل قوله لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم فإن الله تعالى ذم في كتابه هذا الحزن كما قال: لكيلا تأسوا على ما فاتكم، فهذا الغم الذي يصرفهم عن ذاك الحزن المذموم نعمة وموهبة فيكون هو الغم الطاري عليهم من جهة الندامة على ما وقع منهم

(٦٩) البحر المحيط: ٣/ ٩١.

(٧٠) التبيان في تفسير القرآن: ٣: ٢٢، ومجمع البيان: ٢/ ٤٢٠.

والتحسر على ما فاتهم من النصر بسبب الفشل ويكون حينئذ الغم الثاني في قوله بغم، الغم الآتي من قبل الحزن المذكور والباء للبدلية والمعنى جازاكم غما بالندامة والحسرة على فوت النصر بدل غم بالحزن على ما فاتكم وما أصابكم. ومن الجائز أن يكون قوله أثابكم مضمنا معنى الابدال فيكون المعنى فأبدلكم غم الحزن من غم الندامة والحسرة مثيبا لكم فينعكس المعنى في الغمين بالنسبة إلى المعنى السابق. وعلى كل من المعنيين يكون قوله (فأثابكم) تفريعا على قوله (ولقد عفا عنكم) ويتصل به ما بعده أعني قوله (ثم أنزل عليكم) أحسن اتصال والترتيب أنه عفا عنكم فأثابكم غما بغم ليصونكم عن الحزن الذي لا يرتضيه لكم ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا[٧١].

أما الآيات القرآنية التي اشتملت على أحكام شرعية وأختلف في توجيهها بناء على حرف الجر (الباء) نذكر بعضا منها من دون الخوض في تفصيلها خشية الإطالة، منها: قوله تعالى: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ [سورة النساء: ٤٣]، وقوله: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ [سورة المائدة: ٦]، وقوله: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ﴾ [سورة المائدة: ٦].

من:

وهي ضربان زائدة وغير زائدة، فأما غير الزائدة فلها أربعة عشر معنى[٧٢]: (ابتداء الغاية في المكان اتفاقا وفي الزمان، التبعيض، بيان الجنس، التعليل، البدل، المجاوزة بمعنى (عن)، الانتهاء، الغاية، الاستعلاء تضمين الفعل معنى (على)، الفصل، موافقة الباء، بمعنى (في)، موافقة (ربّ)، أن تكون للقسم. ولم يثبت أكثر النحويين لـ (من) جميع هذه المعاني، وتأولوا كثيرا من ذلك على التضمين أو غيره، وذهب قسم منهم إلى أنها لا تكون إلاّ لابتداء الغاية وإن سائر المعاني التي ذكروها راجع إلى هذا المعنى. وقد وردت في القرآن الكريم

(٧١) الميزان في تفسير القرآن: ٤/ ٤٧.

(٧٢) ينظر: الجنى الداني: ٣٠٨-٣١٥.

كثيرا[٧٣].

ومن أمثلتها في النص القرآني الذي اختلف في توجيهه:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ [سورة النور: ٤٣].

تكرر حرف الجر (من) في هذا النص ثلاث مرات اتفق المفسرون في تحديد دلالة (من) الأولى وأختلف في تحديد دلالة الثانية والثالثة وبناء على هذا الاختلاف تعددت توجيهاتهم للنص، قال الشوكاني: والحاصل أن (من) في (مِنَ السَّماءِ) لابتداء الغاية بلا خلاف، و(من) في قوله تعالى﴿ مِن جِبَالٍ ﴾ فيها ثلاثة أوجه، وأما (من) في (مِنْ بَرَدٍ) ففيها أربعة أوجه»[٧٤].

ومن النظر في أقوال المفسرين نلحظ أن دلالات (من) تتمحور حول ما يأتي:

١. (من) الأولى لابتداء الغاية.
٢. (من) الثانية لابتداء الغاية (بدل)، أو البيان، أو التبعيض، أو زائدة.
٣. (من) الثالثة للبيان، أو التبعيض، أو زائدة.

وخلاصة أقوال المفسرين تدور حول ثلاثة معان:

١. أن جبال البَرَد نازلة من السماء، أي هي المفعول به.
٢. أن جبال البَرَد في السماء، والنازل منها محذوف يجب تقديره.
٣. أن الجبال في السماء والنازل منها هو البَرَد.

وفي كل معنى من هذه المعاني وجه النص القرآني عدة وجوه تتفق فيما بينها من جانب وتفترق في جوانب أخرى.

المعنى الأول: أن جبال البَرَد نازلة من السماء، أي هي المفعول به.

وتوجيه النص القرآني للوصول لهذا المعنى يقتضي أن يكون حرف الجر (من) يشتمل على دلالات معينة:

١. الأولى لابتداء الغاية والثانية والثالثة زائدة.

(٧٣) ينظر: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم: ١٠٤٠ -١١٠٣.
(٧٤) فتح القدير: ٤/ ٥٧.

نسب هذا الوجه للأخفش(ت ٢١٥ه)، وعند الرجوع إلى كتابه معاني القرآن نجده يقول: «وهو فيما فُسِّر: يُنَزِّلُ من السماءِ جبالاً فيها بَرَدٌ»[٧٥] من دون الإشارة إلى أن (من) في الموضعين الثاني والثالث زائدة، في حين قال بعض المفسرين أن الأخفش يقول بزيادتها[٧٦] ووصف ابن عطية هذا الوجه بالضعف[٧٧] ومع ذلك اختلف توجيههم للنص بناء على زيادتها في الموضعين، قال القرطبي: «قال الأخفش: إن (من) في الجبال و(بَرَد) زائدة في الموضعين، والجبال والبَرَد في موضع نصب، أي: ينزل من السماء بَرَداً يكون كالجبال»[٧٨]. فالمفعول به (من جبالٍ) فالجبال بناء على هذا التوجيه تكون وصفا للبَرَد أو تشبيها له، ووجه أبو حيان كلام الأخفش توجيها آخر، قال: «(مِنْ) الثانية والثالثة زائدتان وقاله الأخفش، وهما في موضع نصب عنده كأنه قال: وينزل من السماء جبالاً فيها أي في السماء برداً وبرداً بدل أي بَرَد جبال»[٧٩]. وبناء على هذا التوجيه كل من المجرورين في محل نصب أما الأول فعلى المفعولية لينزل وأما الثاني فعلى البدلية منه أي ينزل من السماء جبالاً برداً، وقيل: «المعنى وينزل من السماء قدر جبال، أو مثل جبال من برد إلى الأرض»[٨٠]، فالمفعول به هو (جبال برد) وعلى ذلك تكون (جبال البرد) نازلة من السماء وليس فيها وفي هذا التوجيه جعل الضمير في (فيها) عائد على الجبال. فيصبح التقدير: ينزل من السماء جبالاً فيها بَرَداً. وقد نسب بعض المفسرين هذا الوجه للفراء أي جعل قدر

(٧٥) معاني القرآن: الأخفش: ٢٧٦، ينظر: جامع البيان: ٦/ ١٣٣، التبيان في تفسير القرآن: ٣/ ٤٤١.

(٧٦) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٢٨٩، معاني القرآن: النحاس: ٤/ ٥٤٤، البحر المحيط: ٦.

(٧٧) والمحرر الوجيز: ٤/ ١٩٠.

(٧٨) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٢٨٩.

(٧٩) البحر المحيط: ٦/ ٤٢٧، وينظر: روح المعاني: ١٨/ ١٩٠.

(٨٠) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٢٨٩. وينظر: والمحرر الوجيز: ٤/ ١٩٠، معالم التنزيل: ٣/ ٣٥١، وتفسير السمرقندي: ٢/ ٥١٧.

جبال برد نازلة من السماء وليس فيها، قال أبو حيان: «قال الفراء: هما زائدتان أي جبالاً فيها برد لا حصى فيها ولا حجر، أي يجتمع البرد فيصير كالجبال على التهويل فبرد مبتدأ و(فيها) خبره. والضمير في (فِيهَا) عائد على (الْجِبَالُ) أو فاعل بالجار والمجرور لأنه قد اعتمد بكونه في موضع الصفة لجبال»[٨١]، في حين نجد أن ما ذكره الفراء يذهب إلى أن قدر جبال البرد يكون في السماء وليس النازل منها على ما سنبينه لاحقا.

ويصدق هذا التوجيه أيضا على من ذهب إلى أن (من) الأولى لابتداء الغاية، والثانية زائدة، والثالثة لبيان الجنس، والتقدير: يُنزِّل من السماءِ جبالاً من بَرَد[٨٢].

٢. الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض والثالثة للبيان.

اختار عدد من المفسرين هذا الوجه[٨٣]، وهذا الوجه لا يختلف عن سابقه سوى أن النازل بعض جبال البرد، وليس (جبال برد)؛ لأن (من) الداخلة على (الجبال) أفادت التبعيض، أما جنس هذه الجبال فتكون من البرد، فـ (من) الثالثة في التوجيه السابق تكون زائدة، وهنا تكون لبيان جنس الجبال، ومع ذلك فالمعنى واحد، وهو: ينزل من السماء جبال بَرَد. أو بعض جبال البَرَد. فالمفعول به هو (من جبال) وحاول الطبري أن يؤكد دلالة (من) الثانية على التبعيض من خلال إيراد بعض النصوص القرآنية والقياس عليها، قائلاً: «والصواب من القول في ذلك، أن من لا تدخل في الكلام إلا لمعنى مفهوم، وقد يجوز حذفها في بعض الكلام وبالكلام إليها حاجة لدلالة ما يظهر من الكلام عليها، فأما أن تكون في الكلام لغير معنى أفادته بدخولها، فذلك... غير

(٨١) البحر المحيط: ٦/ ٤٢٧، وينظر: روح المعاني: ١٨/ ١٩٠.
(٨٢) ينظر: معالم التنزيل: ٣/ ٣٥١.
(٨٣) جامع البيان: ٦/ ١٣٣، التبيان في تفسير القرآن: ٣/ ٤٤٢، ٧/ ٤٤٦ -٤٤٧، جوامع الجامع: الطبرسي: ٢/ ٦٢٦، الكشاف: ٧٣٢، والمحرر الوجيز: ٤/ ١٩٠، والبحر المحيط: ٦/ ٤٢٧، معالم التنزيل: ٣/ ٣٥١.

جائز أن يكون فيما صح من الكلام. ومعنى دخولها في قوله: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [سورة المائدة: ٤] للتبعيض إذ كانت الجوارح تمسك على أصحابها ما أحل الله لهم لحومه وحرم عليهم فرثه ودمه، فقال جل ثناؤه: فكلوا مما أمسكن عليكم جوارحكم الطيبات التي أحللت لكم من لحومها دون ما حرمت عليكم من خبائثه من الفرث والدم وما أشبه ذلك مما لم أطيبه لكم، فذلك معنى دخول (من) في ذلك»[٨٤]، ومن أيضا قوله عزّ وجل: ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧١].

المعنى الثاني: أن جبال البَرَد في السماء، والنازل منها محذوف يجب تقديره.

وتوجيه النص القرآني للوصول لهذا المعنى يقتضي أن يكون حرف الجر (من) يشتمل على دلالات معينة:

١. الأولى والثانية لابتداء الغاية والثالثة للبيان.

أي: يُنزِّل من السماءِ من جبالِ بَرَدٍ فيها، حرف الجر (من) الأول والثاني يفيد ابتداء الغاية بيد أن الثاني بعض من الأول وإن شاركه في ابتداء الغاية فالسماء أوسع وأشمل من الجبال التي فيها؛ لأن كل ما علاك فهو سماء، أما الجبال فهي بعض ما في السماء، وذكر المفسرون هذين الوجهين في (من) الثانية واختيار أحد الوجهين لا يغير من دلالة النص القرآني كثيرا، فـ (من جبال) سواء أكانت بدلا (من السماء) أم بيانا لها فهي جهة الإنزال، أما (من) الثالثة فهي لبيان الجبال، أي جبال من بَرَد في السماء، ونحو هذا قول الفراء: «والمعنى، أن الجبالَ في السماء من بَرَدٍ خلقةٍ مخلوقة، كما تقول في الكلام: الآدميُّ من لحمٍ ودمٍ، فـ (من) ههنا تسقط فتقول: الآدميُّ لحمٌ ودمٌ، والجبالُ بَرَدٌ. وكذا سمعت تفسيره»[٨٥]. والفرق بين هذا

(٨٤) جامع البيان: ٦/ ١٣٤، وينظر: التبيان في تفسير القرآن: ٣/ ٤٤٢، معاني القرآن: الأخفش: ٢٧٦،

(٨٥) معاني القرآن: الفراء: ٢/ ٢٥٦ -٢٥٧،

المعنى وسابقه أن (جبال البَرَد) هي في السماء ويكون الإنزال منها وليست هي النازلة من السماء، لذا قيل أن هذه الجبال مخلوقة.

٢. الأولى لابتداء الغاية والثانية والثالثة للبيان.

أي: (يُنزِّل من السماءِ من أمثال الجبال من البرد فيها)، فـ (من جبالٍ) بيان لما في السماء، أي أن فيها أمثال الجبال ومقاديرها وليس فيها جبال حقيقة، و(من برد) بيان للجبال، فالجبال كناية عن كثرة البرد الموجود في السماء والضمير في (فيها) يعود على السماء لا الجبال، قال الفراء: «وقد يكون في العربية أمثال الجبال ومقاديرها من البَرَد، كما تقول: عندي بيتان تبناً، والبيتان ليسا من التبن، وإنما تريد: عندي قدر بيتين من التبن، فمن هذا الموضع إذا أُسقِطت نصبت ما بعدها، كما قال: ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾ [سورة المائدة: ٩٥] وكما قال: ﴿مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا﴾ [سورة آل عمران: ٩١]»[٨٦]، وعمد الطبري والشيخ الطوسي إلى بيان هذا الوجه بقولهما «فيجيز حذف من (من برد) ولا يجز حذفها من الجبال، ويتأول معنى ذلك: وينزل من السماء من أمثال جبال برد، ثم أدخلت من في البرد؛ لأن البرد مفسر عنده عن الأمثال، أعني: أمثال الجبال، وقد أقيمت الجبال مقام الأمثال، والجبال وهي جبال برد، فلا يجيز حذف من (من الجبال)؛ لأنها دالة على أن الذي في السماء الذي أنزل منه البرد أمثال جبال برد، وأجاز حذف من (من البرد)؛ لأن البرد مفسر عن الأمثال، كما تقول: عندي رطلان زيتا، وعندي رطلان من زيت، وليس عندك الرطل وإنما عندك المقدار، فـ (من) تدخل في المفسر وتخرج منه. وكذلك عند قائل هذا القول: من السماء، من

ينظر: جامع البيان: ١٨/ ٢٠٥، التبيان في تفسير القرآن: ٣/ ٤٤٢، معاني القرآن: الأخفش: ٢٧٦، والمحرر الوجيز: ٤/ ١٩٠، معالم التنزيل: ٣/ ٣٥١، روح المعاني: ١٨/ ١٩١.

(٨٦) معاني القرآن: الفراء: ٢/ ٢٥٦ -٢٥٧، وينظر: معاني القرآن: الزجاج: ٤/ ٤٩.

أمثال جبال، وليس بجبال»[٨٧].

وقد يجد القارئ تطابقا بين هذا الوجه والوجه الأول الذي ذكرناه في المعنى الأول إذ كلاهما يجعل الجبال وصفا للبرد وكناية عن كثرته، بيد أننا نلفت نظره إلى أن هذين الوجهان وإن تطابقا من جهة الوصف إلا أنهما يختلفان من جهة المكان، فالوجه الأول يرى أن أمثال جبال البرد ومقاديرها نازلة من السماء إلى الأرض، في حين أن هذا الوجه يرى أن أمثال جبال البرد ومقاديرها هي التي في السماء وليست النازلة منها، ففي الوجه الأول المفعول به موجود وهو (جبال البرد) وفي هذا الوجه المفعول به محذوف. وذكر الزجاج هذا المعنى إلاّ أنه وجه النص بشكل آخر، قال: «ومعنى (مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ) من جبال برد فيها، كما تقول هذا خاتم في يدي من حديد، المعنى هذا خاتمُ حديدٍ في يدي»[٨٨] فعلى هذا يكون (مِن بَرَدٍ) في موضع الصفة لجبال، كما كان (من) في (من حديد) صفة لخاتم، فيكون في موضع جر ويكون مفعول (يُنَزِّلِ) هو (مِن جِبَالٍ) وإذا كانت الجبال (مِن بَرَدٍ) لزم أن يكون المنزل برداً.

وفي الوجهين من هذا المعنى تجد أن المفعول به حاجة إلى تقدير، فـ(جبال البرد) سواء أكانت مخلوقة -بناء على الوجه الأول -أم كانت كناية عن كثرة البرد الذي في السماء، يبقى النازل منها محذوف؛ ولذا لجأ المفسرون إلى تقديره، فإن كانت هذه الجبال مخلوقة، قيل: خلق الله في السماء جبالا من برد، فهو ينزل منها بردا، وفيه إضمار، أي ينزل من جبال البرد بردا[٨٩]، وإن كانت الجبال

(٨٧) جامع البيان: ٦/ ١٣٤، التبيان في تفسير القرآن: ٣/ ٤٤١.

(٨٨) معاني القرآن: الزجاج: ٤/ ٤٩، وينظر: معاني القرآن: النحاس: ٥٤٤، البحر المحيط: ٦: ٤٢٧.

(٨٩) جامع البيان: ٦/ ١٣٣، ١٨/ ٢٠٥، الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٢٨٩، التبيان في تفسير القرآن: ٣/ ٤٤٢، ٧/ ٤٤٦ -٤٤٧، مجمع البيان: ٧/ ٢٥٨-٢٥٩، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١١٠، والمنتخب من تفسير القرآن والنكت المستخرجة من كتاب التبيان: ابن ادريس الحلي: ١٥٠، زبدة التفاسير: فتح الله الكاشاني: ٤/ ٥٢٢.

كناية عن كثرة البرد الذي في السماء، قيل: ويُنزِّل من أمثال جبال البرد بردا، فالمفعول به المقدر -بناء على الوجهين- هو (بَرَداً)، وذهب الطبري والشيخ الطوسي في تقدير المفعول به مذهبا آخر، قال: «إن كان أنزل من جبال في السماء من برد جبالا، ثم حذف الجبال الثانية فالجبال الأولى في السماء جاز كما يقال: أكلت من الطعام يريد أكلت من الطعام طعاما، ثم يحذف الطعام، ولا يحذف (من)»[٩٠]. فالمفعول به المقدر هو (جبال برد) والتقدير: وينزل من السماء من أمثال جبال البرد جبالا من بَرَد.

وتبنى السيد الطباطبائي هذا الوجه قائلا: «السماء جهة العلو، وقوله: (من جبال فيها) بيان للسماء، والجبال جمع جبل وهو معروف، وقوله: (من برد) بيان للجبال، والبَرَد قطعات الجمد النازل من السماء، وكونه جبالا فيها كناية عن كثرته وتراكمه، والسنا بالقصر الضوء. والكلام معطوف على قوله: (يزجي)، والمعنى: ألم تر أن الله ينزل من السماء من البرد المتراكم فيها كالجبال فيصيب به من يشاء فيفسد المزارع والبساتين وربما قتل النفوس والمواشي ويصرفه عمن يشاء فلا يتضررون به يقرب ضوء برقه من أن يذهب بالابصار»[٩١].

المعنى الثالث: أن الجبال في السماء والبَرَد نازل منها.

وتوجيه النص القرآني للوصول لهذا المعنى يقتضي أن يكون حرف الجر (من) يشتمل على دلالات معينة:

١. الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبيين والثالثة زائدة.

أي (يُنزِّل من السماءِ من جبالٍ فيها بَرَدا) هذا الوجه قريب من سابقه بيد أنه يجعل الجبال بيان لما في السماء وهو السحاب المتراكم فالجبال وصف للسحاب وليس للبرد النازل منها، فالمفعول به هو (من بَرَد) وقد ذهب الشريف الرضي إلى أن هذه الجبال الموجودة في السماء وإن لم تكن حقيقية كجبال الأرض إلاّ إنها استعيرت

(٩٠) التبيان في تفسير القرآن: ٣/ ٤٤٢.

(٩١) الميزان في تفسير القرآن: ١٥/ ١٣٧.

للسحاب تشبيها لها، قال: في (من جبالٍ فيها): «وهذه استعارة على بعض التأويلات؛ لأن الجبال هاهنا يراد بها السحاب الثّقال، تشبيها لها بكثائف أطوادها، ومشارف هضابها، ويكون الضمير في قوله سبحانه: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ عائدا على السماء لا على الجبال، فكأنّ التقدير: ويُنزِّل من جبالٍ من السماءِ من بَرَد، يريد من السحاب المشبهة بالجبال، وتكون الفائدة في قوله من جبال في السماء تخصيص تلك الجبال من جبال الأرض؛ لأنا لو جعلنا الضمير الذي فيها عائدا على الجبال أوهم أنها جبال تنزل إلى الأرض من السماء. فإذا جعلنا الضمير عائدا إلى السماء أمن الالتباس، وكان في ذلك أيضا تعجّب لنا من وصف جبال في السماء على طريق التشبيه؛ لأن الجبال على الحقيقة لا تكون إلا في قرارات الأرض، وصفحات التّرب»[٩٢]. وهذا التوجيه يصدق أيضا على من ذهب إلى أن (من) الأولى والثانية لابتداء الغاية والثالثة زائدة[٩٣].

فهذا الوجه الذي قال به الرضيّ وتبعه آخرون يتفق من جهة مع الوجه السابق الذي قال به الفراء ومؤيدوه، ويفترق عنه من جهات أخرى، فأما جهات الاتفاق بينهما هي: أن الفراء والرضي ومن ذهب مذهبهما يتفقان على أن هذه الجبال هي ليست حقيقية، أي أنها ليست بمنزلة الجبال التي في الأرض، وأنها موجودة في السماء ولسيت نازلة منها، وأما جهات الافتراق أن الفراء يجعل الجبال صفة للبرد، والرضي يجعلها صفة للسحاب، ولهذا كان المفعول به عند الفراء محذوف يجب تقديره، أما عند الرضيّ فالمفعول به موجود وهو (البرد) لأنه هو النازل من سحاب يشبه الجبال. فضلا عن ذلك أن الفراء يقول: قدر جبال بَرَد في السماء ينزل منها البرد، فلا توجد مشابه بين البرد الذي في السماء

(٩٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن: الشريف الرضي: ٢٤٦، وينظر: متشابه القرآن ومختلفه: ابن شهرآشوب: ٢/ ٢٦٨، والأمثل: ١١/ ١٢٨.

(٩٣) ينظر: البحر المحيط: ٦: ٤٢٧، معالم التنزيل: ٣/ ٣٥١،

وبين الجبال وإنما كناية عن الكثرة، أما الرضيّ فيرى أن السحاب المتراكم الذي ينزل منه البَرَد يشبه الجبال، وقد أخذ السيد قطب هذا المعنى قائلا: «إن يد الله تزجي السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان، ثم تؤلف بينه وتجمعه فإذا هو ركام بعضه فوق بعض، فإذا ثقل خرج منه الماء والويل الهاطل، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة، فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة، ومشهد السحاب كالجبال لا يبدو لنا كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها، فإذا المشهد مشهد جبال حقا، بضخامتها ومساقطها وارتفاعها وانخفاضها، وإنه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس إلا بعد ما ركبوا الطائرات»[٩٤].

٢. الأولى والثانية للابتداء والثالثة للتبعيض.

وهذا الوجه لا يختلف عن سابقه سوى أن النازل بعض البرد؛ لأنه يجعل (من) الثالثة للتبعيض، والمعنى: يُنزِّل بعضَ البَرَد من السماءِ (من جبالٍ فيها)[٩٥] وقريب من هذا الوجه ما نسبه الآلوسي للأخفش من أن (من) الأولى والثانية للابتداء والثالثة زائدة، والتقدير: ينزل بردا من السماء من جبال كائنة فيها[٩٦]. وقد ذكرنا فيما سبق أن ما نسب للأخفش هو زيادة (من) الثانية والثالثة.

وبعد هذا العرض نلحظ أن المفسرين تبنوا وجوها كثيرة أسفرت عن معان ثلاث، ولربما تداخلت هذه الوجوه وصعب التمييز بينها؛ لأنها تلتقي وتفترق فيما بينها في آن واحد، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا النص ينطوي على إعجاز علمي لم يدركه المسلمون إلاّ بعد عصور متطاولة[٩٧].

أما الآيات القرآنية التي ورد فيها حرف الجر (من) وهي تشتمل على أحكام شرعية أختلف فيها فهي كثيرة

(٩٤) في ظلال القرآن: ١٩ –٢٠/ ١٠٩ –١١٠.

(٩٥) تفسير جوامع الجامع: الطبرسي: ٢/ ٦٢٦، الكشاف: ٧٣٢، البحر المحيط: ٦/ ٤٢٧، روح المعاني: ١٨/ ١٩٠،

(٩٦) ينظر: روح المعاني: ١٨/ ١٩٠.

(٩٧) ينظر: القرآن وإعجازه العلمي: ١٧٤.

وسنقتصر على ذكر بعض أمثلتها من دون الخوض في تفصيلاتها. من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[98] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾[99].

المصادر

القرآن الكريم.

- الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان.
- أحكام القرآن: أحمد بن علي الرازي الجصاص(ت٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد شاهين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.
- أحكام القرآن: الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، جمعه: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: د. عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، (د. ت).
- أحكام القرآن: محمد بن عبد الله المعرف بابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الفكر بيروت، (د. ت).
- الازهية في علم الحروف: علي بن محمد النحوي الهروي، تحقيق: عبد المعين الملوحي، دمشق، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
- آلاء الرحمن في تفسير القرآن: محمد جواد البلاغي (ت ١٣٥٢هـ)، مطبعة العرفان، صيداء، ١٣٥٢هـ-١٩٣٣م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ط١، دار الكتب العلمية،

(٩٨) [سورة آل عمران: ١٠٤]، و(منكم) فيه حرف جر (من) وقد احتملت دلالتين: إما التبيين أو التبعيض، وكلاهما تحتاج إلى أدلة للترجيح.

(٩٩) [سورة المائدة: ٦]، انقسمت المذاهب الإسلامية في معنى الصعيد على فريقين بسبب زيادة (منه) فقال الإمامية والحنفية والمالكية إن هذه الزيادة لا تؤثر على الإطلاق، وقال الشافعية والحنبلية: مطلق خصص بقرينة. إذ احتملت ثلاث دلالات هي: ابتداء الغاية المكانية، أو بيان الجنس، أو التبعيض، وهذه جميعا تحتاج إلى أدلة للترجيح.

بيروت -لبنان، ١٤٢٤ه.
- بحر العلوم: أبو الليث السمرقندي، تحقيق: محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمروي، ط١، دار الفكر، بيروت -لبنان، ١٤١٦هـ.
- البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ١٤٢٢ هـ-٢٠٠١م.
- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.
- التبيان في تفسير القرآن: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٤٦٠هـ)، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، بيروت -لبنان، (د. ت).
- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٠٨٤م
- التفسير الأصفى: الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، ط١، مطبعة مكتبة الإعلام الإسلامي، ١٤١٨هـ.
- تفسير جوامع الجامع: الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، ط١، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٢٠هـ.
- تفسير القرآن الحكيم، المشتهر باسم (تفسير المنار): السيد محمد رشيد رضا، ط٢، دار المنار، القاهرة-مصر، ١٣٦٦هـ-١٩٤٧م.
- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين: عبد الرحمن بن محمد بن ادريس الرازي ابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ)،

تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط١، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، ط١، دار الفكر، بيروت -لبنان، ١٤٢٥ه.
- تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م.
- تلخيص البيان في مجازات القرآن: الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ)، حققه وقدم له وصنع فهارسه: محمد عبد الغني حسن، ط١، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهره، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.
- جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أبو إسحق إبراهيم أطيفش، دار إحياء التراث العربي، بيروت -لبنان، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- الجنى الداني في حروف المعاني: الحسن بن قاسم المرادي (٧٤٩هـ)، تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة، والأستاذ محمد نديم فاضل، ط١، المكتبة العلمية، بيروت -لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت -لبنان، (د.ت).
- زاد المسير في علم التفسير: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، ط٣، المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ.
- زبدة التفاسير: الملا فتح الله

الكاشاني (ت ٩٨٨هـ)، ط١، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم- إيران، ١٤٢٣هـ.

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر بيروت، (د. ت).
- القرآن وإعجازه العلمي: محمد إسماعيل إبراهيم، دار الفكر العربي.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ)، اعتنى به وخرّج أحاديته وعلّق عليه: خليل مأمون شيحا، ط٣، دار المعرفة، بيروت -لبنان، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
- لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الشهير بالخازن، طبع معه تفسير البغوي (معالم التنزيل) دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- متشابه القرآن ومختلفه: ابن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ)، مكتبة البو ذر جمهري، طهران، ١٣٢٨هـ.
- مجمع البيان لعلوم القرآن: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، المجمع العلمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، القاهرة، ١٣٧٨هـ-١٩٥٨م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل: عبد الله بن أحمد النسفي(ت٧١٠هـ)، ط١، دار النفائس، ١٤١٦هـ.
- معاني القرآن: أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ)، تدقيق: د. هدى محمود قراعة، ط١، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.
- معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق:

أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، (د. ت).

- معاني القرآن: النحاس (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني، ط١، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٩هـ.
- معاني القرآن وإعرابه: أبو اسحق إبراهيم بن السِّري الزجاج (ت ٣١١هـ)، شرح وتحقيق: الدكتور عبد الجليل عبده شلبي، ط١، عالم الكتب، بيروت -لبنان، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- معجم حروف المعاني في القرآن الكريم: محمد حسن الشريف، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: جمال الدين بن هشام النصاري (ت ٧٦١هـ)، حققه وعلّق عليه: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، ط١، مؤسسة الصادق، طهران، ١٣٧٨هـ.
- المنتخب من تفسير القرآن والنكت المستخرجة من كتاب التبيان: ابن إدريس الحلي (ت ٥٩٨هـ)، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، إشراف: السيد محمود المرعشي، ط١، مطبعة سيد الشهداء عليه السلام، قم المقدسة، ١٤٠٩هـ.
- الميزان في تفسير القرآن: السيد محمد حسين الطباطبائي، ط١، منشورات مؤسسة دار المجتبى للمطبوعات، قم-إيران، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: علي بن أحمد الواحدي، ط١، دار القلم، دمشق -بيروت، ١٤١٥هـ.